الموضوع الأول: الشعر وأدواته:

أولا: مفهوم الشعر:

١ـ عمد ابن طباطبا إلى تعريف الشعر بأنه «كلام منظوم» وأن هذا النظم هو الذى باعد بينه وبين المنثور الذى يستعمله الناس فى مخاطباتهم، ثم ربط بين الطبع والذوق من جهة والقدرة على النظم من جهة أخرى، ونبه على عدم احتياج من صح طبعه وذوقه إلى العَروض فيما ينظم، أما من اضطرب عليه الذوق فلن يجد عوضًا فى العروض وإن حذقه، حتى تصير معرفته المستفادة من العروض كالطبع الذى لا تكلف معه، وتلك رؤية أعمق من رؤية من رأى الشعر كلامًا موزونًا مقفى ورأى الوزن والقافية تكفيهما معرفة العروض وإن حُرم الشاعر الذوق والطبع اللذين بهما يجول على المعانى فيصوغها بما يميزها عن النثر، وممن وقفوا فى تعريف الشعر عند الوزن والقافية قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) فى كتابه «نقد الشعر» إذ يقول: «وليس يوجد فى العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه: إنه قول موزون مقفى يدل على معنى» [١] وتبعه فى هذا التعريف ابن سنان الخفاجى (ت٤٦٦هـ) فى كتابه «سر الفصاحة»[٢].

ومجمل ما تميز به تعريف ابن طباطبا ، إدراكه الشعر نظمًا إن عُدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق، وهذا ما فصله عبد القاهر الجرجانى (ت٤٧١هـ) فى دلائل الإعجاز وهو يعرض أسرار النظم فى الشعر والنثر، وهو عرض فنى تطبيقى جوهره الطبع والذوق، إذ يقول: «فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدًا على سواء [أى مزية الحسن وأسباب القبح فى الكلام] وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، وإلا إعرابًا ظاهرًا، فما أقل ما يُجدى الكلام معه، فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم

---

(١) نقد الشعر: ٦٤.

(٢) سر الفصاحة:٢٨٦.

الإحساس بوزن الشعر، والذوق الذى يقيمه به، والطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره، ومزاحفه من سالمه، وما خرج من البحر مما لم يخرج منه»[1].

فالنظم ـ فى الشعر والنثر ـ تركيب مؤسس على المعانى التى قصدها الناظم وصاغها بإحساس وذوق وطبع، وقد جعل عبد القاهر ذلك موصولاً بالمعانى المستفادة من تراكيب النحو.

ثم أقام ابن طباطبا من الذوق والطبع معياراً يضبط به النظم، لا تفيد دراسة العَروض فى ذلك إلا إذا تحولت تلك الدراسة طبعًا لا تكلف معه ويطابق هذا القول رأى عبد القاهر فى عدم الأخذ بظاهر المنظوم، والاعتماد فى ذلك على آلإحساس والذوق والطبع.

ثانيًا: أدوات الشعر وثقافة الشاعر:

سلك ابن طباطبا مسلكًا تعليميًا توجيهيًا فيما يمكّن للشاعر فى فنه، ويوفر للشعر أسباب القوة والجمال والتناسق، وقد سرد ذلك كله متتابعًا مقدمًا الأزواد الثقافية للشاعر على دعائم الشعر ومقوماته الفنية.

لم يخرج ابن طباطبا عن المأثور فيما يجب على الشاعر أن يثقُفه، فأوجب عليه أن يتوسع فى علم اللغة، ويبرع فى الإعراب، ثم يشحذ قريحته برواية فنون الآداب، ويثرى معارفه بتعريف أيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم ويحيط بطريقة العرب فى المخاطبات والصفات والأمثال، ويقف على بلاغتها فى ألفاظها وجزالة معانيها، ويفطن إلى حسن مباديها وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظه من العبارة.

ثم عليه أن يجتنب سفاسف الكلام، وسخيف اللفظ، والمعانى المستبردة والتشبيهات الكاذبة، والإشارات المجهولة ، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٠٢.

وبالنظر فيما أوجبه ابن طباطبا وما حذّر منه، نجده معنيًا بثقافة الشاعر عناية بالغة متنوعة. وأنه ـ وهو فى القرن الرابع زمن نضج الحداثة ـ لم يطرّح طريقة العرب، بل ألزم بها الشعراء إلزامًا رآه يعصمهم من الخلل فيما ينظمونه، كما قرن بين ثقافة الشاعر المؤسسة على الموروث النقدى والبلاغى واللغوى والتاريخي، وبين الصورة المثلى للقصيدة فى معانيها وقوافيها.

ففى المَعنى يقول: «حتى لا يكون ملفقًا مرقوعًا، بل يكون كالسبيكة المفرغة والوشى المنمنم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه» (العيار٧) ومجمل هذا توجيهه الشعراء نحو التناسب والملاءمة بين المعانى من جهة، وبين المعانى والألفاظ الدالة عليها من جهة أخرى، وأن تقع الألفاظ بقوة استدعاء المعانى لها.

وفى القوافى يقول: « وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها، ويكون ما قبلها مسبوقًا إليها ولا تكون مسبوقة إليه فتقلق فى مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له، غير مستكرهة ولا متعبة ...» (العيار٧) وهو فى هذا القول يؤكد من طرق مختلفة على وجوب وقوع القوافى فى مواضعها كالشيء المرتقب الذى يسعى نحوه ما قبله سعيًا لازمًا لتمامه واكتمال صورته، خلافًا لتلك القوافى المفروضة بلا استدعاء أو إلحاح مما سبقها.

وبهذا فإن فضل ابن طباطبا يتمثل فيما صاغه مجموعًا على نحو بديع، فيه ما يؤكد على استيعابه ما تناثر فى مصنفات سابقيه، وفيه تفصيل الأدباء النقدة للقافية المتمكنة والقلقة، وعدم الفصل بين المعانى وألفاظها ، أو ترجيح أحدهما على الآخر فى النظم، ثم ترتيبه عناصر الشعر ترتيبًا مؤتلفًا موصولا بعلوم ومهارات لا غناء عن بعضها فى بناء القصيدة.